من حكايات جدتى

د. سهير القلماوى ◆ اختيار وتقديم: عبد التواب يوسف

روائع الأدب العالمى للأطفال

مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

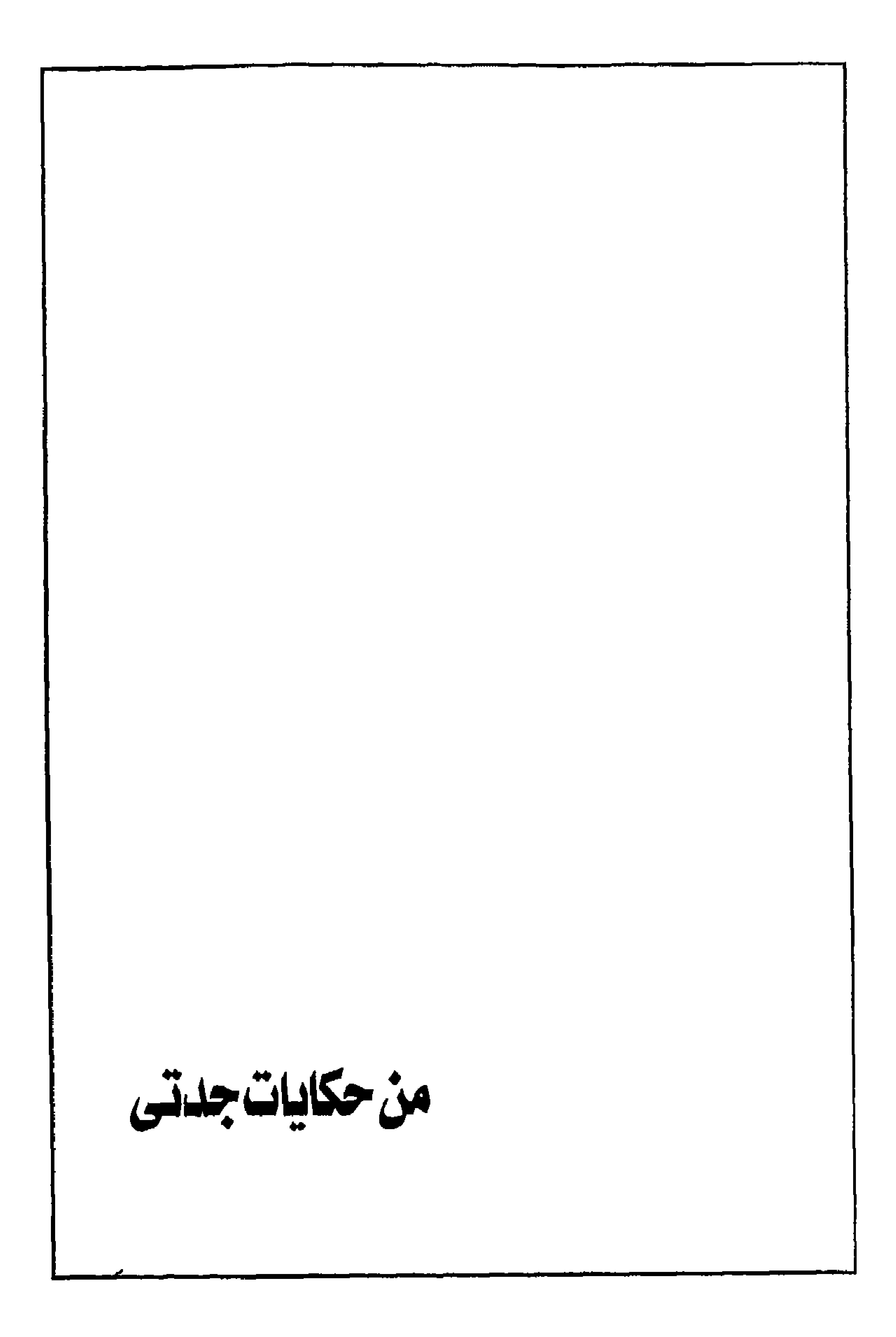
مهرجان القراءة للجميع

عشر سنوات

2000



الهيئة المصرية العامة للكتاب



من حكايات جدتى

لوحة الغلاف

التقنية : ألوان مائية على قطن مصنع يدوياً ، ذو ملمس خشن

محمود الهندى

فنان تشكيلى ومصمم جرافيكى. أشـرف على، وأخـــرج العديد من المجلات،القاهرة، اليسار ، المسرح ، تياترو .يقيم معارضه التشكيلية داخـل صفحـات الكتب، قافية بين امرئ القيس وبينى ، ذكر مقتل الحـلاج، ، الامتاع والمؤانسة لأبـى حيان التـوحيـدي ، ابن عــروس، واللوحـة المنشورة رسمت خصيصاً للكتاب .

من حكايات جدتى

د. سهير القلماوى

اختيار وتقديم

عبد التواب يوسف



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الاسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العالمى للأطفال)

من حكايات جدتى

د. سهير القلماوى

اختيار وتقديم: عبدالتواب يوسف

الغلاف والرسوم
والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

رقم الإيداع ١٤٤٦٦ / ٢٠٠٠
I.S.B.N 977-01-6922-6

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

روائع
الأدب العالمى للأطفال

عيون الأدب

قصص وحكايات أدباء العرب الكبار الذين كتبوا أعمالاً نادرة للأطفال.

١ـ أحمد شوقى	الشوقيات الضاحكة
٢ـ توفيق الحكيم	أهل الكهف
٣ـ سهير القلماوى	من حكايات جدتى
٤ـ محمود تيمور	بدر البدور
٥ـ عباس محمود العقاد	من نوادر جحا
٦ـ صلاح عبد الصبور	حى بن يقظان

تقديم

عبد التواب يوسف

هذه السيدة العظيمة ... ، وأنا

عندما عثرت على كتاب « أحاديث جدتى » فى مكتبة « البلدية » فى بنى سويف، كنتُ صغيراً، لكننى عكفت عليه حتى قرأته، واستمتعت به كثيراً، واستطعت أن أقتنى نسخة ـ مازالت عندى ـ حملتها معى فى الأجازة إلى قريتى، حيث الوقت طويل ممتد كالخضرة والجسور والأفق... ورحت أقرأ هذا الكتاب مرة، ومرة، حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب.. وقررت فى ذلك الحين أن تكون هذه

السيدة «سهير القلماوى» جدتى، فإننى لم أر جدة لى..

وصدر كتابها عن ألف ليلة، ولم أكن قد قرأتها إذ حرمها على أبى- رحمه الله- ولكننى كنت قد سمعت الكثير من حكاياتها من الرواة فى قريتى، كأنما لتبقى أثرا شعبيا عالقا بذهنى ووجدانى.. وقرأت كتاب د. سهير القلماوى عن ألف ليلة وأنا طالب جامعى.. وقد أخذنى من يدى لكى أدع كتب الاقتصاد والعلوم السياسية وألتهم قصص ألف ليلة.

ثم كان لقائى بها عن بعد.. تسللت إلى واحد من مدرجات كلية الآداب أستمع إليها فى محاضرة، وبعدها جريت أقف مع الملتفين حولها كى أتطلع إليها، وسألتها عن شىء لا أذكره لمجرد أن تسمعنى وترد علىّ، وتوجه الحديث إلىّ.. وكانت أمى فى

ذلك الحين بعيدة عنى، ورأيت أن د. سهير القلماوى أصغر من أن تكون « جدة »، إنها « أمى » بعد « أمى »..

وتابعتها.. قرأت كتبها، وأعددت واحدة من قصصها لمهرجان القصة العربية الذى أقمته فى صوت العرب على مدى تجاوز المائة حلقة، اخترت له أجمل ما كتب من قصص عربية حتى ذلك الحين، ورأيت أن قصتها « وهدمنا الجبل » واحدة منها.. كما أننى ذات مرة استطعت أن أجعل منها « راوية » لواحد من برامجى، كان عنوانه « أيام زمان » نحكى فيه أحداث عام مضى بتفاصيله الكثيرة، وتتخلله مقاطع تمثيلية، ومن أجل إضفاء الجدية عليه اقترحت على مخرجه الأستاذ سعد لبيب أن تكون د. سهير القلماوى هى الراوية، وقبل اقتراحى، وجاءت هى لتؤدى الدور، الأمر الذى جعل البرنامج يحقق نجاحا كبيرا..

وحتى ذلك الحين، فى منتصف الستينات، لم تكن قد عرفتنى.. كان لها عندى رصيد كبير، وعندما لقيتنى كانت المناسبة أننى واحد من المهتمين بالكتابة للطفل، وأنادى بما هو أبعد من ذلك، ألا وهو «ثقافة الطفل» وجلست بين يديها طالباً لعلمها... وعرفتنى.. واشتركت معها فى ندوة، ولأول مرة أجلس إلى جانبها.. ويومها أيدت اقتراحى الخاص بإنشاء جمعية لثقافة الأطفال، وباركت خطواتى من أجلها، وعندما قامت على قدميها عرضنا على د. سهير القلماوى أن ترأسها فاعتذرت ودفعت بنا إلى أن نتحمل المسئولية كاملة، وهى من ورائنا فى دار الأدباء تساندنا،

وأعترف أن الكثير من مقترحاتى ما كان يمكن أن يرى النور لولاها، ولولا تشجيعها لى، ومساندتها ولكننا اختلفنا كثيرا.. خلاف فيه عنف، خلاف الأبناء والآباء.. كانت تريدنى إبنا مطيعا، وكنت أريدها أماً لابن شب عن الطوق..

ولن أنسى يوم فـــرحت بخــــاطرة جـــالت فى ذهنى..أن أكتب للأطفال كتـابا بعنوان «الخيـال والحقيقة» أتحدث فى صفحة عن قصة بساط الريح، وفى الصفحة التالية أقدم كيف تحول هذا الخيـال إلى حقيقة هى الطائرة.. وكنت سعيدا بالفكرة فخورا بها، وإذا بالدكتورة سهير القلماوى تقـول لى:. لماذا تريد أن تغلق باب الخيـال أمـام الطفل؟

وانهارت الفكرة وانصرفت عنها..

وحلقات البحث والدراسة التى عقدت بفضلها كثيرة.. إنها صاحبة منهج علمى.. ولست أنسى يوم سافرت إلى مانيلا فى الفلبين لكى أشارك فى حلقة لكتاب آسيا وأفريقيا عن أدب الأطفال، ويتصادف أن تـرأس هى الجلسة التى سألقى فيها بحثى، ويعلم الله كم اجتاحنى الفرح لذلك، وما نسيت تعقيبها..

ومازال منقوشا على صفحة قلبى وذاكرتى.. يومها كان بودى أن أهتف لها إنى أحبها، لكننا أهل الريف لا نقول هذه العبارة لأمهاتنا.. وقد حاولت خلال تصرفاتى أن أعلن عن هذا الحب الكبير الذى يغمر قلبى تجاهها، فاتجهت منذ سنوات بعيدة إلى كتابها «حكايات جدتى»، لكى أبسطه وأيسره للأبناء، ليستمتعوا به وكان ذلك تأكيدا لتجربة قامت بها وهى تلقى علينا محاضراتها فى نادى القصة.. قالت إن الأطفال قادرون على قراءة الكثير لو أننا عرضناه فى سلاسة ويسر.. ويومها قرأت علينا صفحة كاملة من كتاب قديم، لعله «الفرج بعد الشدة» للتنوخى، وشهدنا جميعا بأن الصغار يمكنهم فهمه.. ولم أدخل قلمى على كتاباتها، فقط اخترت هذه الصفحات، التى مازال طعم حلاوتها على لسانى، وصحبنى هذا الطعم عمرا كاملا.

ولقد صار أمل عمرى اليوم أن أرى إبنتى « لبنى » أستاذة مثل د. سهير القلماوى.. بل لعلها كانت المثل الأعلى الذى وضعتهُ أمامى، متمنيا إياه لابنتى. وقد وضعت أقدامها على طريق الحياة الجامعية أستاذاً مساعداً بكلية الآداب.. على طريق « جدتى » و « أمى » و « أستاذتى » د. القلماوى..

لها منى كل الحب والود والتقدير

ورحمها الله رحمة واسعة بقدر ما أضافت للجامعة، وللأدب، ولثقافة الأطفال فى مصر والوطن العربى.



إهـــداء

سمعت «سهير القلماوى» هذه القصص من جدتها.. وها هى د. سهير تصبح جدة.. لذلك لم أجد أفضل من أحفادها نهدى إليهم حكاياتها، كى تبقى هذه الحكايات خالدة على مر الزمن.

«عْ»



من حكايات جدّتى

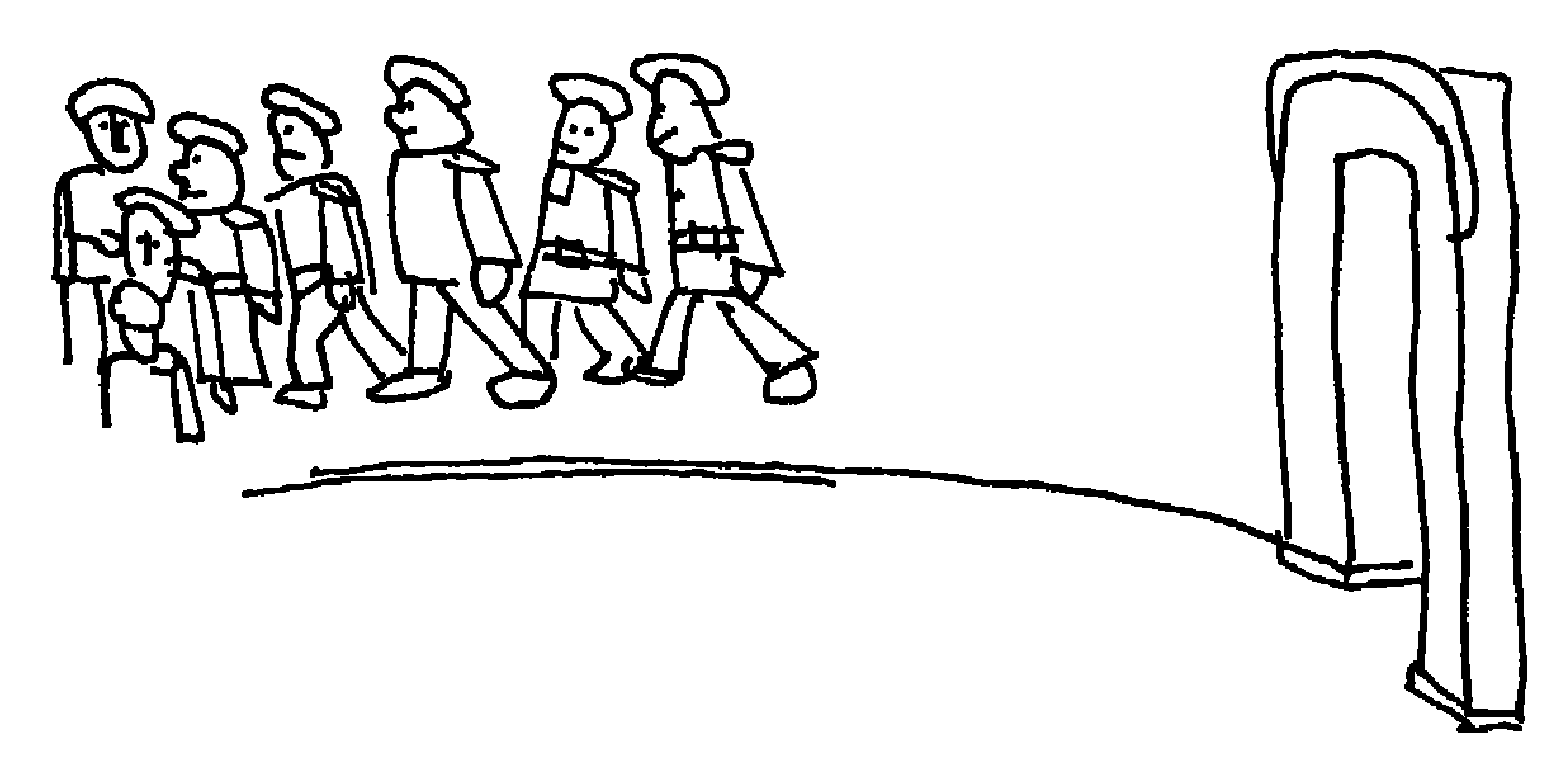
د. سهير القلماوى

اختيار وإعداد وتقديم

عبدالتواب يوسف



التـــل الكـــبير



مر بنا الجيش المصرى يوما، فرأيت أستاذى ينظر للجند متألما يغالب دموعه، وقال لى:

كم يستطيع هذا الجيش، لكنه مقيد لا يقوى على شىء، كالأسد المحبوس فى قفص الحديد، لا يستطيع إلا الزئير.

من ذلك اليوم لا يمر بى فريق من الجند أو أسمع موسيقاهم حتى يغالبنى دمعى وتثور نفسى وأود لو يتاح لى سبيل الانتقام من الأجانب الذين أضعفوه.

هذا سبب اضطرابى، فما بكاؤك أنت يا جدتى كلما مر الجيش بك أو سمعت موسيقاه؟

قالت جدتى: يذكرك الجيش المصرى يا إبنتى بما يستطيع لو لم يضعه الأجنبى، ولكنه يذكرنى بكثير من هذا وبأكثر منه. يذكرنى بجهاد أبنائى فى سبيل الوطن، ثم هو يذكرنى أولا، وقبل كل شىء، بإبنى رأفت.

ومسحت جدتى دمعة كانت مازالت تريد السقوط من عينيها وقالت:

كنا يا بنتى فى منزلنا هذا، وهو قريب كما ترين من ثكنات الجيش الإنجليزى ولم تكن العباسية كما هى الآن مليئة بالبيوت والعمارات، وإنما كانت بيوتها قليلة منثورة هنا وهناك، بين البيت والبيت مسافة بعيدة، كان بيتنا هذا والبيت الذى يجاورنا يكادان يكونان الوحيدين فى كل تلك المنطقة، فلا ترى العين على مدى البصر سواهما شرقا وغربا، شمالا وجنوبا.

وكان جو الوطن إذ ذاك كله غيوم كثيفة، عرابى باشا من ورائه الجيش، وقد تجسمت آمال المصريين ومطالبهم فى شخصه، والخديوى توفيق فى سراى التين والأجانب والإنجليز خاصة يرون الفرصة قد جاءت لتدخلهم فى شئون البلاد وأخذ ما يمكن أخذه منها. وكان لى إذ ذاك ثلاثة فى الجيش: اثنان فى حرس توفيق باشا وواحد فى جيش عرابى باشا.. ولم يكن الجيش يا إبنتى كهذه الأيام - عام ١٩٣٠ - يدخلون فيه كل من فشل فى العلم أو العمل. قد ارتقوا فى اختيارهم حديثا، وأصبحوا يشترطون فى داخل الجيش حيازتهم الشهادات، ولكن أيام أبنائى كانوا يأخذونهم من مدارسهم العالية بعد أن يكونوا قد درسوا بها سنتين أو ثلاثا.

وظلت جدتى تتكلم عن أبنائها، وكم سنة درس كل واحد منهم فى دراسته العالية، وأى فرع كان قد

تخصص فيه، ولكنى كنت أفكر بعيدا عن قولها. كنت أفكر فى شروط القبول فى الجيش كانوا يدخلون الفاشلين مدرسة الحربية أو البوليس فلما أيقنوا من فساد المجتمع، وأدخلوا نظام المدارس تحت سلطانهم وجعلوها قوالب يصبون فيها المصريين كما يريدون، ثبت لهم أن المدارس أصبحت تخرج لهم نوعًا من الشباب كالذى كانوا يقبلونه، اشترطوا الشهادات وشروطا أخرى ليضيقوا العدد، فلم يدعوا باب الحربية مفتوحاً لكل من يريد، لئلا يتوفر العدد، ولئلا يدخل فيها من سوف يصبح زعيماً حربياً يوماً ما، من قد ينفخ فى وطنه الروح العربية من جديد. وما عملوا إلا لإماتتها لأنهم لا يخشون غيرها.

مسكينة يا مصر، أصبحت أكبر شهادة تقدم للدخول فى جيشك أن يتظاهر المتقدم، أو أن يصرح بأنه لا يهمه أمرك، وأنه لا يفكر فى خدمتك.

مسكينة يا مصر، أصبح من أبنائك من تسمح له روحه ويرضى عنه ضميره إذا قال هذا القول متمسحا بأسباب مهما كبرت فهى أمام حبك صغيرة، وأمام ما يجب لك حقيرة دنيئة. متى.. متى يقوم منك الزعيم..

وانقطعت سلسلة أفكارى على قول جدتى:

كنت أبيت الليل ساهرة ودمعى لا يجف حتى الصباح. ترى لو اشتبك الجيشان، لو حارب الأخوة بعضهم البعض! لو قتل الأخ أخاه! لو قتلوا جميعا! لو فقدت ثلاثتهم، وهم كل ذخرى بل هم كل حياتى! أبنائى أين أنتم وفيم أنتم؟...

ولم يكن لدينا جرائد نعرف منها الأخبار، لم يكن لدينا أى شىء نستطيع الوصول به إلى معرفة ما قد تم فى الإسكندرية. أربعة أشهر يا ابنتى قضيتها فى الجحيم.

كانت الأخبار تأتينا لكن متناثرة مفككة، بعد وقوع الحوادث بأيام بل بأسابيع. قالوا إن الإنجليز ضربوا قلاع وحصون الإسكندرية بأساطيلهم، فانزعج قلبى على أبنائى، كانوا فى الإسكندرية، وكانوا فى حرس توفيق باشا، ولكن من يدرى؟ ربما أصيبوا هم أيضا.

وأخيرا جاءنى خبر أنهم لم يصابوا فى ضرب الإسكندرية.

ولم ينته الجرح يا ابنتى بضرب الإسكندرية، وإنما كان يشتد ويزيد، ثار المصريون ثورتهم واندفعوا وراء زعيمهم عرابى باشا يريدون وضع حد فاصل بينهم وبين تدخل الأجنبى.

واتهم عرابى باتهامات كثيرة، ورأى عرابى أن الخديوى قد خدعه الإنجليز، وأنه أمن إليهم أكثر مما يجب، فلم يكن عرابى والمصريون معه ليفهموا

حسن نية الإنجليز بعد ضربهم قلاع الأسكندرية وتدميرها. فأشهر عرابى الحرب على الإنجليز، وحاربهم وحاربوه. وأعلن الخديوى أنه غير مسئول عن أعمال عرابى وأصبح عرابى زعيم الأمة، والجيش من ورائه. وحارب عرابى، وأخذ يتقهقر إلى أن وصل إلى التل الكبير. وتحصن فى التل الكبير واستعد لموقعة هائلة، موقعة فاصلة علق المصريون عليها آمالهم وكل مستقبلهم.

كان ولدى رأفت فى جيش عرابى، وكم كنت أود لو أن ولدىَّ الآخرين كانا فى نفس الجيش، كم وددت لو أنى قدمت نفسى فى هذه الموقعة مع أبنائى، لم أدخل الحرب ولكنى قاسيت بعيدة عنها ما كنت أرضى بالحرب بدلا منه. إن أهوال القتال مهما اشتدت لا تعادل آلامى وتهديد آمالى ولحظات انتظارى فى هذه الأيام. ولأعترف لك يا ابنتى بما

اقترفت فى حق وطنى إذ ذاك. شعرت ساعتها أنى لو خيرت بين موت أولادى الثلاثة، وبين انتصار عرابى فى التل الكبير لاحترت وتمهلت لأفكر. ولم أخفى عليك؟ لقد سألت نفسى هذا السؤال، ولقد سمحت لى نفسى أن أتردد وأن أميل أخيرا إلى تفضيل حياة أبنائى. كم لمت نفسى بعدها وقلت لها: خذى جزاءك على فكرة مرت بك لم تكن صريحة خالصة فى جانب الوطن.

أيام مرت علىّ كالسنين المليئة ألما وخوفا، أيام بين خبر زحف عرابى إلى التل الكبير وبين خبر انهزام عرابى فى التل الكبير. وختم من جاءونا بالخبر قولهم بأن غدا يدخل الجيش الانجليزى القاهرة ليعسكر فى ثكنات العباسية.

لن أستطيع أن أصف لك هول وقع هذا الخبر، لقد أصبح أهل القاهرة كلهم وقد تملكهم الخوف،

ودب اليأس فى قلوبهم، يريدون الهرب بأى سبيل حتى لا يعرضوا أنفسهم لما سينزله بهم الجيش المحتل. أصبحت هذه تذهب عند تلك لأن بيتها يبعد عن الثكنات كذا من الأمتار، كأنما فى مثل هذا البعد شىء من الأمان. وفكرت كما فكروا فى الهرب والاختفاء. إن بيتنا قريب جدا من الثكنات وفى هذا القرب خطر علينا عظيم. وكانت لى صديقة تسكن حى بولاق، فقلت أسير إليها لعل فى البعد نوعا من الأمان. فاستأجرت عربة لم أجد غيرها فى مثل هذا اليوم ورتبت حوائجى. وأركبت أطفالى الصغار، ولكن فكرة أفسدت على كل هذا الترتيب. قلت فى نفسى: إن دخل الجيش العاصمة فالعاصمة كلها فى خطر، فما معنى الهروب من حى إلى حى، إن الله إن أراد بنا الشر لحقنا فى أى مكان، فلم الفرار من المقدور؟ ولم ألتجىء إلى صديقة، ولا ألتجىء إلا إلى الله؟ سيسمع دعائى دون شك، وليفعل بعدها ما يريد.

وأنزلت أولادى ودخلت دارى من جديد. وعمدت إلى الأبواب والنوافذ كلها فأغلقتها، وإلى الأنوار فأطفأتها. ووقفت أرقب الطريق من وراء النوافذ. وصغارى يسألوننى بين حين وآخر ماذا جرى؟ وأين إخواتنا الكبار؟ وما يبكيك يا أماه.

طالما شهدونى باكية فى هذه الأيام. فـفوق اضطراب الخوف من الحرب كنت أخاف أن تطول الحال بنا فينتهى ما عندى من مال. كانت القاهرة كلها يا ابنتى وهى عاصمة البلاد مهددة بشبح الفقر. وبخاصة الأسر التى كان يعولها رجال الجيش. فما بالك بأسر الريف الفقيرة المسكينة. وكنت أخاف على قلوب صغارى البريئة من الألم فأخفى دمعى وأقول لهم: بعد قليل تعرفون. هيا إلى ألعابكم العبوا بها. ويشهد الله أن لعبة واحدة جديدة لم يروها منذ شهور. بل منذ عام. وكأنما قد

ضاقوا بهذا السؤال ورأوا فى طاعتى ما قد يريحنى. فراحوا بعيدا عنى ولم أعرف ماذا عملوا إلا أن أكبرهم كان يجىء من حين لحين يهدئنى ويقول: صبرا يا أماه. ألم يحضر إخوتى بعد؟ ألم يأت خبر من عندهم؟ فأقول له: دعنى هنا يا بنى واذهب أنت لإخوتك تلهيهم باللعب أو الكلام حتى يأتينا الفرج.

وعن بعد سمعت أصوات الجند قادمين. فكأنما أصواتهم نار دخلت أذنى لتحرقهما وشيئا فشيئا اقتربت أصواتهم حتى ظهروا وهم يسيرون ضاحكين مهللين يصفرون وينشدون أناشيد النصر والمجد. وتساقط دمعى غزيرا حارا فقد كانت صورة كل واحد منهم شوكة فى عينى. أحس ألمها فى رأسى المصدع الذى يكاد يسقط من ثقله وأسندت رأسى بين يدى وتركت دمعى يسقط ما شاء له السقوط.

وأنا أغلى من غيظى وحنقى. هذا الأجنبى يدخل وطنى غاصبا مستعمرًا، لا لشىء إلا لأنه أقوى جندا وعددا. ومن يدرى لعلهم انتصروا فى الحرب خديعة لا عن قوة وصبر.

وما كاد خيالى يوصلنى إلى الحرب حتى ذكرت أبنائى. وكان منظر الجيش قد جعلنى أنساهم. من يدرى لعل هؤلاء قتلة أبنائى أيضا! وهنا لم أطق النظر إليهم. وما إن لفتّ رأسى كى لا أراهم حتى لمحت ضابطا منهم يتجه نحو دارنا ويقرع الباب قرعا شديدا.

ولم يكن خادم بالمنزل كله، لأنهم طلبوا إلىّ فى هذه الظروف أن يعودوا إلى أهلهم فتركتهم لأهلهم فهم أولى بهم وأحق بما قد يستطيعون. نعم يا ابنتى فى تلك الظروف تلين القلوب ويعطف بعضها على بعض. لم أرهم خدمى الذين تطوعوا لخدمتى

إزاء أجر ينالونه. لم أفكر فى أنهم ينفعوننى فى مثل هذا اليوم، رأيتهم يومها قلوبا تحترق مثلى لا يخفف عنها إلا الأهل والأقارب، رأيت أهلهم وهم يبكونهم فتركتهم بل شجعتهم على الإسراع إليهم. ولم يبق لى من خدمى إلا عبدى وجوارى فلم يكن لهؤلاء المساكين أهل أو أقارب إلا أنا وأولادى. وكان مسلك هؤلاء ومنظرهم مما يبعث على الضحك، لولا أن الوقت مخيف. فما سمعوا أخبار الحرب والانهزام حتى صعدوا إلى أعلى غرفة على سطح المنزل واعتصموا بها أياما يولولون ويبكون ويصرخون. ولقد تركتهم يفعلون ما يريدون. فهذه طريقة تفريجهم عن حزنهم وإن كنت لم أعرف بالضبط سر بكائهم. لكن بعد عودة أولادى عرفت أنهم كانوا يبكون أولادى. وهم يعرفون أنى لا أطيق هذا النوع من البكاء، فراحوا فى مكانهم يبكون ما

شاءوا يا لقلوبهم الطاهرة المخلصة! قلوبهم التى تراعى مزاجى فى أشد أوقاتهم حزنا وخوفا!..

ولنعد إلى الطارق الذى لم أكن حسبت له حسابا، من ينزل له؟

خدمى ليسوا فى المنزل، ولو كانوا لما عرضتهم لهذا الخطر، وعبدى وجوارى على سطح المنزل فى حصنهم العالى، ولن يطاوعنى قلبى عل إنزالهم. وأهلى يتلخصون فى هؤلاء الأطفال الصغار. جئت مصر غريبة عنها وما مكثت بها قليلا حتى تزوجت. ومات والدى الذى جئت معه بعد زواجى بقليل فلم أعرف بعده أقارب إلا زوجى وأولادى، لأن كبارهم كانوا فى الحرب.

وجاءنى أكبر من كان معى من أولادى يقول: « أمى، سأنزل لأرى ما يريد هذا الإنجليزى » قلت: كلا. أنا التى ستنزل إليه. قال: « كيف يا أماه إنه رجل وهو

غريب، وهو عدو فرح بالنصر. كيف تقابلينه و أنا فى المنزل هل أنا طفلة ترضع؟ قلت: ولدى كلمة واحدة. أنا التى ستنزل إليه. قال: «أمى، إنه إنجليزى وهو لا يعرف العربية. فكيف تتفاهمان؟».

وجمت أمام صدق ملاحظته ولكن لن أدعه ينزل وحده قلت: انزل يا بنى، إنى وراءك. وأسرعت إلى المطبخ فأخذت سكينا حادة أخفيتها تحت ثيابى، ونزلت السلم وراءه حتى جئنا إلى الباب ففتحته ووقفت خلفه.

ورأيت من الإنجليزى رجلا مؤدبا يكلم ولدى بما لم أفهم، ولكنى لمحت فيه ذوقا واحتراما جعلنى أنتظر. ولم أكد أنتظر حتى صاح فى ولدى مهللا فرحا يقول: «أمى! أن أخوىّ اللذين فى الحرس بخير وعافية، وقد طلبا من هذا الإنجليزى أن يمر بك ليطمئنك عليهما».

نسي ولدي أني كنت مختبئة من شدة فرحه،
ونسيت أنا ما هو أخطر من هذا من شدة فرحي:
نسيت إني أمام واحد من الجيش المغتصب، إني أمام
إنجليزي كان منظره منذ دقائق يشوك عيني.
ويصدع رأسي، ويبكيني غيظا وحنقا نسيت أني
أمام عدو غلب أمتي، فقلت لولدي: قل للضيف
يدخل ليستريح قليلا ريثما يشرب فنجانا من
القهوة.

رفض الضابط عرضي لارتباطه بمواعيد فرقته.
وما كاد الباب يقفل حتى صحت:

ولدي. ولدي! هذه سكيني. اقتله! اقتله! إنه
إنجليزي! إنه هازم أمتك، إنه هازم أخيك رأفت!
إنه... وكدت أقول قاتل رأفت لولا أني أحسست أني
سأقول كذبة هائلة.

وهدأنى ولدى وجفف دمعى وقال: أمى! إن رأفت لم يمت، أنا أحس هذا، هو قادم إلينا عما قريب. أمى لا تبكى، إخوتى فى أمان.

فى غرفتى المظلمة ظللت أبكى وأبكى. ولو كان هذا الضابط جاءنى بخبر موت ولدى ما بكيت أكثر مما بكيت. كنت أبكى وطنى يا ابنتى وانهزام ابنى رأفت. كنت أبكى أرض مصر التى أصبحت يطأها الأجنبى فخوراً بالنصر. مصر وطنى الذى لم أولد به. ولكنى لم أعرف لى وطنا سواه. مصر التى قضيت بها أسعد أيامى، مصر التى سال دم زوجى وفاضت روحه من أجلها وكذا سال دم أبنائى، ومن يدرى لعل رأفت قتل فى سبيلها!

وطرق الباب فنزلت مسرعة. فإذا بى أسمع شهقة وبكاء، كان ابنى سبقنى إلى الباب، وكان الطارق ابنى رأفت. والأخوان يتعانقان عناق الهزيمة والخيبة

ويبكيان لا من فرح اللقاء بعد انقطاع الرجاء. وإنما يبكيان من ألم الهزيمة وذل الانكسار.

وجرى رأفت إلىّ والدمع يبلل صدره، وعانقنى وقبلنى، وأخيرا استطاع أن ينطق: «أماه! لا تبكى، إن إخوتى لم يصبهم أذى، وها أنا ذا سليم أمامك».

ولكنه كان يخادع نفسه فى طمأنتى على أولادى. كان يحس تماما إننا نسينا كل شىء فى تلك اللحظة إلا مصر. فما أتم كلامه حتى رمى رأسه على صدرى وأخذ يبكى ويبكى. قلت: بنى، إن ذل الانكسار أليم، وإن ألم الهزيمة لا يعادله ألم فى نفس الجندى. ولكن صبرا إن الله لا يضيع أجركم. إن الله الذى يرعانا جميعا لن يرضى عن هذا الظلم. وسينتصر الحق عما قريب. صبرا بنى لا تبك.

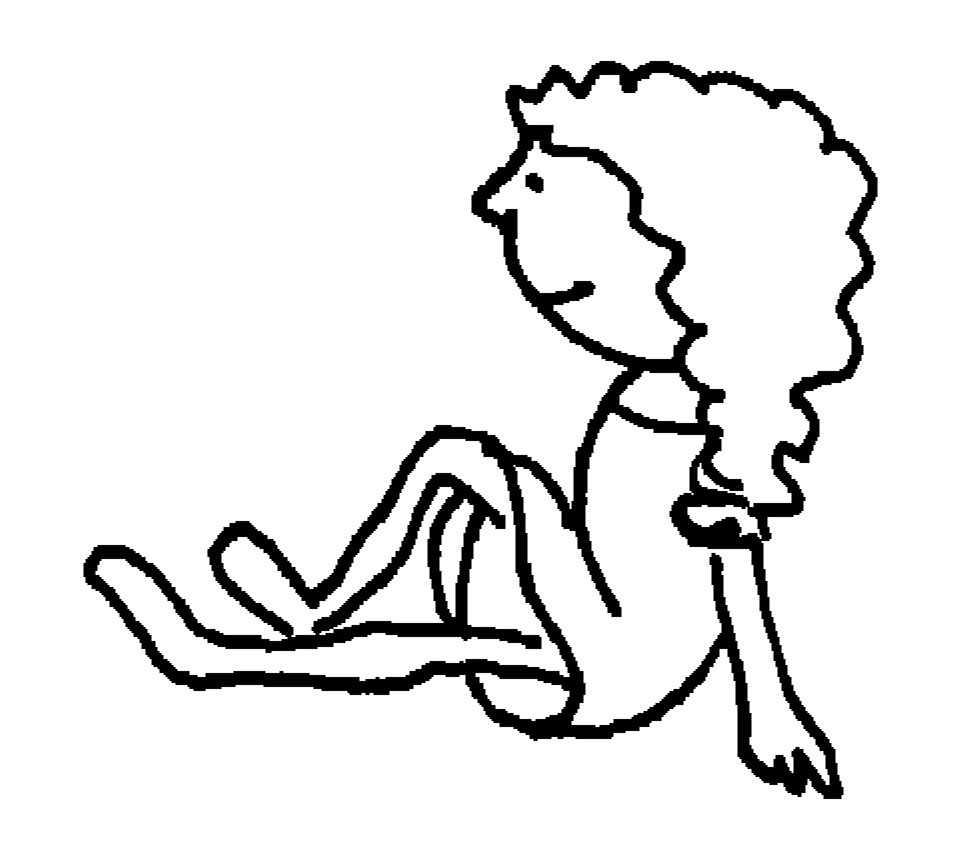
وتساقطت دموع جدتى حارة ساخنة كأنما رأفت مازال على صدرها. ثم قالت شاهقة من البكاء: وإلى

الآن يا ابنتى لم يرفع الظلم عن مصر، وإنما ازداد بأس المحتل الظالم وعتوه.

...



خديعة هكس





كنت أعرف أن الحديث عن مصر يؤلم جدتى. تلك العجوز التى عاشت عمرها وهى تغذى مصر بأبنائها وزوجها وبقلبها. لم يعمل واحد من أبنائها إلا فى الجيش المصرى. ولم يمت زوجها إلا فى خدمة الجيش المصرى، بل فى ميدان الحرب من أجل مصر، وفى سبيلها. لقد علقت هذه العجوز ماضيها وحاضرها ومستقبلها، إن كان لايزال لها مستقبل، بمصر وبآمال مصر. وكذلك أبنائها كلهم لم يعرفوا ميدانا للعمل إلا جيش مصر. أحاديثها مع زوجها، وأحاديثها مع أبنائها كلها كانت تدور

حول مصر. وها هى اليوم أحب ما تحدث به، إليهم وإلى حديثها عن مصر.

وأردت أن أغير موضوع الكلام، فقلت ساهية: «ولكن ابنك رأفت مات فى حرب» وكأنما زدت النار حطبا وأنا لا أدرى، فقد اندفعت جدتى ثائرة، وقد تقلص وجهها المجعد الجميل، وجحظت عيناها الباهتتان الغائرتان الدامعتان. ومن فمها الدقيق الذى ظهرت عليه معالم الكبر والوهن، خرجت كلماتها حارة قوية حزينة ساخطة:

لقد غدر به اللئام، لقد قتلوه وقتلوا عشرة آلاف جندى مصرى غدرا وخيانة وظلما. ولو كانوا يا ابنتى قدموهم إلى المقصلة أو المشنقة واحدا واحدا لكان أشرف لهم، فهم أقوياء، وهم يريدون فناء الجيش فليفنوه علنا. أما أن يتستروا وراء الحيل والخديعة ليفوزوا بأغراضهم الدنيئة وباحترام

العالم فى وقت واحد فهذا أشر ما أعرف من حالات الجبن.

ما دخل الإنجليز مصر حتى عرفوا أن أخطر ما فيها جيشها. ولقد امتحنوا هذا الجيش فى حربهم فعرفوه شجاعا صبورا، ما دخل الإنجليز مصر حتى عرفوا أن جيشها على قلة عدده ليس جيشا يستهان به. فقالوا هذه الشوكة نقلعها ونستريح من خطرها. وهكذا دبروا ما يسميه التاريخ «موقعة هكس». وما أسميه أنا «خديعة هكس».

بعد ثلاث سنين من دخولهم مصر جاءتهم الفرصة. قامت ثورة المهدى فى السودان واشتد أمرها، فحشدوا عشرة آلاف جندى مصرى وأرسلوا معهم القائد «هكس» الإنجليزى. ولم يشك أحد من المصريين إذ ذاك فى أن الإنجليز لا يريدون بهذا الجيش إلا أن يقاوم المهدى فى السودان! فسار

الجيش والقلوب معلقة به، هذه لها ابنها، وتلك والدها أو زوجها أو أخوها، أما أنا فكان لى فيه ولدى رأفت.

ودعت يومها ولدى رأفت وأنا أحس أنى لن أراه بعدها، ولكن غالطت نفسى وقلت: هذا كان شعورى يوم ودعته ليسير مع عرابى باشا، وها هو قد عاد سالما، فجففت دمعى وقلت: سر يا ولدى والله سيرعاك.

سار الجيش وراء قائده سليمان نيازى باشا ورئيس أركان حربه هكس باشا وتحمل الجيش ما تحمل من متاعب الطريق، وألم الجوع، والصبر على العطش. وما قاربوا «الأبيّض» بعد انتصارهم على جنود المهدى بالقرب منها حتى طمعوا فى فتحها، وأرسلوا إلى الحكومة لتأذن لهم فوافقت. وهنا بدأ هكس مكيدة الإنجليز: قال: إنه لن يسير إلى

« الأبيض » إلا إذا كانت القيادة له، وإلا فهو غير مسئول عن النتائج. وسلموا القيادة له وأرسلوا معه حكمدار الخرطوم علاء الدين باشا؛ وسار هكس بالجيش المصرى لفتح « الأبيّض » فى طريق وعر صعب المسالك، لا ماء فيه ولا مأوى. وأشار عليه علاء الدين باشا بألا يتبع هذا الطريق، وأبان له صعوبة مسالكه وقلة مياهه وخطورته، فرفض القائد إلا تنفيذ خطته، وسار الجيش جائعا عطشا، مهددا كل وقت بخروج الدراويش عليه من الأحراش والغابات وجاعت الجياد وعطشت وسقطت إعياء، وأصبح أمر الجيش مؤلما فظيعا أشد الفظاعة، أصبح جسما بدا الموت يدب فيه من الجوع والتعب والعطش. كل هذا وهكس مصمم على السير فى الطريق الذى اختاره. وما إن اقتربوا من الماء حتى اندفعوا نحوه فى لهفة وسرعة، ومدوا أعناقهم من

العطش إلى حافة الماء يشربونه بأقرب طريق وأسرعه. وهنا خرج عليهم أتباع المهدى وقتلوهم قتلا ولم يبق من الجيش إلا قلة لا تتجاوز بضع مئات ممن استطاعوا الاختفاء بين الأشجار أو بين جثث القتلى.

خديعة والله يا ابنتى دبروها وأحكموا تدبيرها. وهل يعقل أن يراد بجيش الثورة العرابية إلا الشر والدمار؟ لقد خسرت انجلترا قائدا واحدا راحت حياته فى سبيل إضعاف الجيش المصرى أو الانتقام منه. أما مصر فقد خسرت مقابل هذا القائد الواحد حاكما، وستة قواد، وعشرة آلاف جندى بضباطهم، جازاهم الله يا ابنتى إن عز الدنيا لا يدوم، وسلطانهم مهما قوى فله نهايته.

وما جاءنى خبر تلك المجزرة حتى خفت وجزعت على رأفت كل الخوف والجزع. ولست أدرى كيف أن

قلبى ـ الذى لم يكذبنى قط ـ لم يصدق موت رأفت. كان قلبى يحدثنى دائما أنه حى. قالوا أن عددا قليلا نجوا ولم نكن نعرف كيف نجوا، فقلت: إن رأفت لم يمت.

ولم أكن أعرف يا ابنتى المشايخ ولا السحر، ولكن صديقاتى قلن لى استشيرى الشيخ فلان، إنه صادق لم يكذب قط. وذهبت مع أحداهن عند الشيخ. وعلم طلبى وبعد مراسيم سخيفة لم أشعر بسخافتها إلا بعدها بكثير، قال لى: «إن رأفت ولدك حى. لم يمت. وإنه يهيم وحده وسط الأدغال، وإنه واصل إليك وإن تأخر».

زاد اعتقادى بعدها أن رأفت حى، ولكم صارحنى ولدى الكبير قائلا لى «أماه ! إن رأفت مات، فاحزنى عليه، لكن أريحى نفسك من آلام هذا الشك وهذه الآمال التى تعرفين فى قرارة نفسك إنها خائبة،

لماذا تذهبين الى المشايخ وأنت تعرفين كذبهم وخداعهم؟ أريحى نفسك يا أماه وأطلبى من ربك صبرا وعزاء، فهذا خير لك».

كنت أقول دائما: كلا رأفت لم يمت، قلبى يحدثنى بهذا، وإن كان حديثه خافتا كما لم أعهده من قبل. وكنت بعد كلام ولدى أحس بضعف الأمل فأسرع طورا لهذا الشيخ وطورا لذاك، فيؤكد لى جميعهم إنهم يرون رأفت حيا بين الأدغال يسير نحوى.

وبعد أعوام عاد من السودان من كان قد شهد المعركة، فسألت على واحد منهم وذهبت إليه بنفسى دون علم أولادى وسألته: أتعرف ابنى رأفت، الضابط فى فرقة كذا؟ قال: «نعم». قلت: أين هو؟ قال: «استشهد يا سيدتى» قلت وقد بدأت أبكى دون وعى: لكنه حى؟ قال فى شفقة وحسرة: «ولكنى

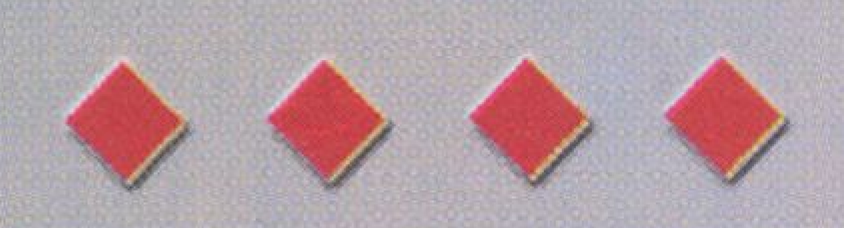
رأيتــه بعـينـى»... فشهقت وقلت: هو حى، هو حى. وأخـذت أبكى وأبكى. فخفف على الرجل بعض ما أجد وقال: «سيدتى: عزاءا جميلا وكفاك فخرا أنك قدمت ولدك فداء للوطن». قلت: جزاك الله خيرا يا بنى.

منذ أن نطق الرجل بعبارته هذه امتلأ قلبى فخرا وأمنا. نعم قــدمت من أجلك يا مـصـر شـابا فى العشرين من عمره، لم يملك إلا حياته فقدمها غير طامع فى شكر أوفخر أو ذكرى.

●●●

ودقت موسيقى الجيش مرة أخرى بمرور فرقة ثانية. فأعادت جدتى كلماتها: يذكرنى الجيش أولا، وقبل كل شىء بدم ابنى رأفت. يذكرنى برأفت الشهيد.





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك





٥٠
قرش

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع